حُجَّابْ أبواب الخلفاء في العراق

(١٣٢-٣٢٩هـ/٧٤٩-٩٤٠م)

دراسة تاريخية

م. د. ناهضة مطر
كلية التربية – جامعة واسط

المُقدِمة:

بَدَتْ مُهمة الحَاجِب بسيطة ـ لاسيما في العصر الأموي ـ ثم تَدرجتْ في النمو إلى أن بلغت أوج مراحلها في العصر العباسي الأول، الذي شَهِد نقلة نوعية في وظيفة الحَاجِب، تمثلت من خلال تأثيره الكبير في علاقة الخليفة بالناس أولا وتطور الأحداث السياسية، التي شهدت مراحل حَرجِة لاسيما في العصر العباسي الثاني ثانيا، وقد مَهَد لهذا الدور ارتباط الحَاجِب بالخليفة، فأصبح لقوة الخلفاء وهيبتهم انعكاساتها الواضحة على حُجَابِهم، إذ تحدثت الأخبار كثيرا عن بعض الحُجَاب، قُتلوا مع أولياء نعِمتهم ـ أي الخلفاء ـ.

لم يقتصر اتخاذ الحُجَاب على الخلفاء فقط، وإنما كان لأُمراء الأقاليم والوزراء والأغنياء حُجَابهم أيضا، الذين لم يَكُن لهم التأثير ذاته، الذي كان لحُجَاب أبواب الخلفاء، لذلك سيكون تركيزنا في البحث مقتصرا عليهم مع الأخذ بنظر الاعتبار أن هذه الأدوار تراوحت بين الخبو تارة والظهور تارة أخرى.

شَهِد هذا العصر حُجَاب مؤثرين تحدث المؤرخين كثيرا عنهم، ومن هؤلاء الربيع الحَاجِب وابنه وحفيده، الذين توارثوا الحِجَابة في عصر خمسة خلفاء وهم أبو جعفر المنصور ومحمد المهدي وموسى الهادي وهارون الرشيد ومحمد الأمين ولا ريب في أن حِجَابتهم لأبرز خلفاء الدولة العباسية قد هيأت لهم الإطلاع على كثير من الأحداث السياسية المهمة في الدولة فضلا عن أسرار حياة الخلفاء في قصورهم.

تناول البحث حُجَاب السلطة منذ بداية تأسيس الدولة العباسية إلى نهاية عام (٣٢٩هـ/ ٩٤٠م) وهو العام الذي توفي فيه الخليفة الراضي (٣٢٢هـ/٩٣٤م ـ ٣٢٩هـ/ ٩٤٠م)، ويأتي اختيارنا لهذا العام تحديدا لعدة أسباب منها حالة الفوضى والاضطرابات التي أخذت منحى خطيرا يتمثل من خلال الصراع بين القادة العسكريين للحصول على منصب أمير الأمراء الذي سيطر على مفاصل الدولة وموظفيها كافة بما فيهم الخليفة نفسه كما أخذت النزاعات الإقليمية تتبلور في الأقاليم البعيدة لتحويلها إلى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة عن سيطرة السلطة المركزية في بغداد.

فضلا عن ذلك فقد اتفق اغلب المؤرخين القدامى على أن الخليفة الراضي كان مسك الختام لمراسيم كثيرة اتخذها الخلفاء العباسيين من بداية تأسيس الدولة إلى نهاية عهده " إذ كانت نفقته وجوائزه... وخدمه وحجابه وأموره كل ذلك يجري على ترتيب المتقدمين من الخلفاء "[١] أما بعد وفاته فأخذت الأمور اتجاها فوضويا بتدخل الأجانب في شؤون الحكم.

تناول البحث المعنى اللغوي والاصطلاحي لوظيفة الحجابة ونشأتها والسلطات التي تمتع بها حُجَاب السلطة وموقف المجتمع منهم، إذ تأرجحت مواقفهم بين النقد تارة، والمدح تارة أخرى، وأخيرا ذكرت أحاديث وروايات الحُجَاب عن الخلفاء، إذ وجدت أن هذه الروايات كانت دائما تمتدح الخلفاء وتحاول أن تَبرُز شجاعتهم والتزامهم بالدين.

الحَاجِب في اللغة والاصطلاح:

الحَاجِب لغةً من حَجَبَ، والحِجَاب: السِتْر، وحَجَبه: منَعَه عن الدخول[٢]، واحتَجبَ: استتر وستحجبه: ولاه الحِجَابة وحَاجِب جمعه حُجَابْ[٣].

وردت في القرآن الكريم في ثمان مواضع، تتعلق كلها بالحِجَاب والسِتر[٤] كما استخدم الرسول(ﷺ) المصطلح في حديثه بقوله " من احتجب عن الناس لم يحتَجِبْ عن النار " [٥].

أما في الاصطلاح فيذكر ابن خلدون " إن الحِجَابة تُعَّدُّ من رسوم السلطان وألقابه وكان أول شيء بُدأ به في الدولة شأن الباب وسده دون الجمهور لئلا يزدحموا عليه ويشغلوه... فاتخذوا الحَاجِب "[٦].

يتبين من ذلك أن مُهمة الحَاجِب تتمثل في تنظيم الدخول والخروج للخليفة، وهي بذلك تختلف اختلافا جذريا عن ما يقوم به الحَاجِب في دولة بني أمية في الأندلس وفي ذلك يقول ابن خلدون " إنهم ألفوا اسم الوزير أول الدولة... ثم قسموا خطته أصنافا... لكل منها وزير... وافرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان... وخصوه باسم الحَاجِب... فارتفعت خطة الحَاجِب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها "[٧].

نشأة وظيفة الحَاجِب. مراحل النمو والتطور:

حظرتْ الشريعة الإسلامية مدافعة ذوي الحاجات عن الأبواب، لذلك لم يتخذ الرسول (ﷺ) ولا الخلفاء الراشدين حُجَابا على أبوابهم[٨] فقد اشترط الخليفة عمر بن الخطاب على عُماله أن " لا يتخذون حُجابَا"[٩]. لكن هذا الحظر لم يستمر بتطور الأحداث السياسية في البلاد، وكثرة الاغتيالات للخلفاء غيلة، وتحول الخلافة إلى مُلك يتوارثه الأبناء عن الآباء، مما دفع الحُكام إلى اتخاذ الحُجَابْ على أبوابهم[١٠] الذين كان اغلبهم من الموالي[١١].

يرى الجاحظ أن الحِجَابة بدأت في عهد الخلفاء الراشدين ثم استمرت بعدهم[١٢] في حين يرى اليعقوبي أن معاوية بن أبي سفيان أول من أقام البوابين في الإسلام وأرخى الستور[١٣] ويبدو أن اغلب الروايات التاريخية تذهب إلى الرأي الثاني، لكنها لا تنفي وجودها في عصر الخلفاء الراشدين، حيث اتخذ عُمَالَهم على الولايات، الحُجَاب على أبوابهم[١٤]، حتى برز الأمر واضحا في عصر الأمويين والعباسيين إذ عَدَّ ابن خلدون ذلك من "مَنازع المُلك"[١٥].

أن مُهمة الحَاجِب في عهد الأمويين تتمثل في إدخال من يرغب الخليفة برؤيته، وتُرِكَ له ـ أي للحاجب ـ أمر التقديم والتأخير في الإذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم، وهذا الأمر يشمل الكُل، غير ثلاثة أشخاص يدخلون على الخليفة في أوقات حضورهم وهم " المؤذن للصلاة... وصاحب البريد... وصاحب الطعام"[١٦].

ومما يجدر ذكره هنا انه لم يخصص في هذا العصر مكان للحَاجِب، ليتمكن الوافدين من ذوي الحاجات من الانتظار فيه، والذين اضطروا للوقوف

بباب الخليفة، ريثما يأذن لهم[١٧]، فضلا عن ذلك فإنه لم ترد أسماء لامعة لحُجَاب أثَّروا في سياسة الخلفاء الأمويين[١٨].

إن خطورة المُهمة التي يقوم بها الحُجَابْ تستوجب توفر شروط مُهمة، ينبغي توفرها فيهم، والتي أصبحت فيما بعد أسسا عامة [١٩] وفي ذلك يقول الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) " ينبغي للحاجب أن يكون عاقلا، فطنا، قد خدم الملوك قبل أن يتولى حجابتهم"[٢٠]، كما سعى بعض الخلفاء إلى توعية حُجابِهم، وتدريبهم على طُرق التعامُل الصحيحة التي تَجذب الناس إلى الخليفة، ولا تُبعِدهم عنه، حتى وإن امتنع الخليفة عن مقابلة احد القادمين إليه، وفي ذلك يذكر الجاحظ وصية احد الخلفاء لِحاجِبه قائلا له" إذا جلست فإذن للناس جميعا عَليَّ وابرز لهم وجهي.. إن أداء الأمانة في الأعراض أوجب منها في الأموال... وقد ائتمنتك على أعراض الغاشين لبابي... واقبل على من تَحجِب بإبداء البشر وحلاوة العذر وطلاقة الوجه ولين القول وإظهار الود حتى يكون رضاه عنك... كرضا من تأذن له عنك لما يمنحه من التكريم ويحويه من التعظيم"[٢١].

تعاظم نفوذ الحُجَاب تدريجيا وبلغ مداهُ الكبير في عصر العباسيين، فهم قدموا النُصُح والمشورة للخلفاء[٢٢] ثم تولوا إدارة دواوين الدولة المهمة[٢٣] كديوان الرسائل[٢٤] والخاتم والنفقات[٢٥] والإشراف على بيوت الأموال والخزائن[٢٦] بل أن بعضهم تولى الوزارة[٢٧] وقيادة الجيش[٢٨]، فظهر حُجَاب كِبار عَلتْ شُهرتِهم في الآفاق ومنهم الربيع بن يونس وابنه الفضل[٢٩].

كانت مظاهر الأُبهة واضحة في كل مظهر من مظاهر حياة الخلفاء لاسيما في قصورهم، وتحت إمرتهم الخدم والجواري والغلمان، وبالتالي كانوا حريصين أن لا يُعكِّر صفو حياتهم أي عارض، أو حتى يطَّلع العامة على ترفِهم، وبذخِهم، وابتعاد اغلبهم عن الشعارات الدينية التي رفعوها[٣٠] ففي بعض الأحيان يأمر الخليفة بوضع الأستار ليستقبل الشعراء والخطباء فيتولى الحَاجِب إبلاغ الخليفة بقوله "... يا أمير المؤمنين هذا فلان الخطيب فيأمره فيخطب... وهذا فلان الشاعر فينشده"[٣١].

فضلا عن ذلك فقد كان لسياسة الخلفاء العباسيين الشديدة في التعامل مع اغلب الثائرين والمعارضين لحكمهم، حيث شَهِد العصر ثورات كثيرة جدا من العلويين والخوارج والقبائل العربية والخراسانية[٣٢]، لذلك فقد أحاط بعضهم نفسه بعدد كبير من الحجاب حتى وصفوا بـ"كثرة التَحَجُبْ"[٣٣] في حين تباهى البعض الآخر بأنهم بلا حُجَاب، وفي ذلك يقول الخليفة المأمون " كان لعمر بن عبد العزيز وعبد الملك حُجَابْ وأنا بنفسي"[٣٤]، وهذا لا يعني انه لم يكن له حُجَاب، لأن الروايات تؤكد وجود حُجَاب على بابه[٣٥]، لكن يبدو أنهم لم يكونوا بالعدد الكبير، ولم يتمتعوا بال امتيازات التي حصل عليها من سبقهم في المهنة فضلا عن ذلك فقد كان الخليفة المأمون واثقا بحاشيته المحيطين به، الذين ارتبطت مصالحهم بوجوده[٣٦].

حدثت تطورات كبيرة على نظام الحِجَابة في هذا العصر، حيث استحدث منصب كبير الحُجَاب[٣٧]، الذي تكون تحت إمرته عدد كبير من الحُجَاب الصِغار، يأتمرون بأمره[٣٨]، كما يبدو أنها أصبحت وراثية عند البعض منهم، لاسيما إذا حاز هذا الشخص إعجاب الخليفة بأخلاقه وإخلاصه لذلك فقد جعل الربيع ابن يونس الحُجَابة وراثة لابنه الفضل الذي ورثها بدوره لابنه العباس وفي ذلك يقول الخطيب البغدادي أن " العباس حَاجِبْ بن حَاجِبْ بن حَاجِبْ"[٣٩] كما كانوا ينادونهم بلقب "يا عباسيَّ"[٤٠].

ذكرنا أن الحَاجِب يُلازم الخليفة في كل الأوقات، لا\يتركه أبدا وهو مُكَّلف بتحقيق كل رغبات سيده[٤١]، فداره في وسط المدينة المدورة حيث يوجد قصر الخليفة[٤٢]، كما تم تهيئة منازل للأشخاص الذين يرغب الخليفة برؤيتهم، تكون تحت تصرف الحَاجِبْ، فقد أنزل الفضل بن الربيع، عبد الملك بن قريب الاصمعي (ت٢١٦هـ/ ٨٣١م) في منزل " وأقام فيه يومين أو ثلاثة "[٤٣] ريثما يتفرغ الخليفة لرؤيته.

أما بالنسبة للناس الواقفين عند باب الخليفة، فقد تم تقسيمهم وفقا لطبقاتهم الاجتماعية، إذ أُنشأ داران للعباسية، دار الخاصة التي يستقبل فيها الخليفة أقربائه ورجال دولته وطبقة الأشراف وأتباعه كما يستقبل في دار العامة أصحاب الحرف والصناعات والتجار والأدباء[٤٤] ثم تم استِحداث حاجِبْ ثالث

فيما بعد يتم فيه الحجر على صاحب الدولة ويفسر ابن خلدون سبب اتخاذ هذا الحَاجِبْ بقوله " أن أهل الدولة وخواص الملك إذ نصبوا الأبناء من الأعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم... فأول ما يبدأ المُستبد أن يحجُب عنه بطانة ابنه وخواص أوليائه يوهمه أن في مباشرتهم إياه خرق حُجَابْ الهيبة وفساد قانون الأدب ليقطع لقاء الغير ويعوده ملابسة أخلاقه... ولا يقع هذا إلا في أواخر الدولة "(٤٥).

تعاظم نفوذ الحُجَابْ واستِبدادِهم في العصر العباسي الثاني، لذلك فقد بَدتْ عليهم مظاهر الترف والفخامة سواء بتصرفاتهم أو بملابسهم وزينتهم، ما أدهش رسول ملك الروم عندما وَفِدَ إلى بغداد لمقابلة الخليفة المقتدر بالله عام (٣٠٥هـ/٩١٧م) حتى انه عندما مَّر بالحَاجِب ظن انه الخليفة فقيل له " هذا الحَاجِبْ"(٤٦).

سلطة الحُجَاب على الخلفاء

تمكن الحُجَاب من فرض سيطرتهم على الخلفاء، إذ كانوا ـ أي الخلفاء ـ لا يَردُّون لهم طلبا، وفي ذلك يذكر المسعودي طلب الربيع الحَاجِب من الخليفة أبو جعفر المنصور، تحقيق رغبته في أن "... يَحُب ابنه الفضل..."(٤٧)، وتَشفُعه لعمارة بن حمزة مولى بني هاشم، على الرغم من أن الخليفة المهدي كان سيئ الرأي فيه(٤٨).

في الواقع إن تنفيذ كُلْ الرغبات التي يتمناها الشخص ـ وذلك بمنحه السلطة والنفوذ والمال ـ ومن الخليفة نفسه، أمرا لا بُد أن يُشِعرْ صاحبه بالعظمة والتَكبُّر، وفي دلالتها تحمل حُرص الخليفة على إرضاء الأشخاص الذين يخلصون له، فقد وصِف الفضل بن الربيع بأنه " من أتيه الناس وأشدها تعاظما"(٤٩)، كما رفعَ نصر الحَاجِب نفسه حتى أوصلها إلى "... الثُريا..."(٥٠)، في إشارة إلى مكانته من الخليفة، وتَمُّكنه منه.

ولا ريب في أن الخلفاء العباسيين، قد يكونون مُحِّقين في الاعتماد على حُجَابِهم وتفويض بعض أمُورهم إليهم، مثل الأشراف على البناء والعُمران، ففي عام(١٥٧هـ/٧٧٣م) قرر الخليفة المنصور " عقد الجسر عند باب الشعير ـ لتيسير الأعمال التجارية بين الجانبين ـ وجرى ذلك بأمر الربيع الحَاجِب "(٥١)،

كما ابدوا عدم مُمانعتهم من مُشاركة حُجَابِهم في استجواب الأشخاص الذين يَشكُّون بتآمرهم على الخليفة، فعندما ادعى عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيري أمام الخليفة هارون الرشيد، أن موسى بن عبد الله بن الحسن الطالبي يريده للبيعة، كان الفضل بن الربيع الحَاجِب يُشارك الخليفة في مناقشتهما ـ أي عبد الله وموسى ـ ليتأكد من كلامِهما[٥٢]، فهؤلاء ـ أي الحُجَاب ـ كرَّسوا حياتهم لخدمة الخلفاء، واخلصوا لهم، وكانوا عين الخليفة على الناس، فتحَّروا الأخبار في وقت كان الخليفة يَشُكُ في أقرب الناس له، ومُحاطا بعناصر كثيرة ترغب في التخلص منه، لاسيما وأنهم ـ أي الخلفاء العباسيين ـ ساموا معارضيهم ومن يشِّكون بأمرهم أقسى أنواع العذاب[٥٣] وهذا ما يُفسر الثقة المطلقة التي أولاها الخلفاء لحُجَابِهم فالربيع الحَاجِب يَكتُم موت الخليفة أبو جعفر المنصور، إلى أن يأخذ البيعة لولي عهده ابنه محمد المهدي من بعده عام (١٥٨هـ/ ٧٧٤م) [٥٤]، كما هَّمَ بعض رجال الدولة ومعهم الربيع الحَاجِب تنفيذ رغبة الخليفة محمد المهدي بتقديم هارون الرشيد على أخيه موسى الهادي[٥٥].

عاش الحُجَابْ لاسيما كِبارِهم في رفاهية مطلقة، تملكوا الأموال الكثيرة، وفي هذا الصدد يذكر ابن كثير أُمِنية مُضحِّك الخليفة هارون الرشيد، ابن أبي مريم، في أن يلي الحجابة لمدة يوم واحد، فولاها له، وحينها جاءت الهدايا إليه مِن كل جانب من زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد والبرامكة، وكبار الأمراء، وكان حاصله في ذلك اليوم ستين ألف دينار[٥٦]، ولنا أن نتصور مقدار المبالغ التي حصل عليها آل الربيع في مدة حُجَابتهم التي تزيد عن (٥٠) سنة[٥٧]، فضلا عن القطائع التي مُنِحتْ لهم، ومنها قطيعة الربيع الحَاجِب في الكرخ، التي ذكرها ياقوت الحموي بقوله "وهما قطيعتان خارجة وداخلة، فالداخلة اقطعه إياها المنصور والخارجة اقطعه إياها المهدي وكان التجار يسكنونها حتى صار ملكا لهم دون ولد الربيع"[٥٨]

على الرغم من الصفات التي تميز بها هؤلاء الحُجَابْ، إلا إن ذلك لا ينفي عنهم صفة التَملُق للخليفة لإرضائه، حتى وإن كان على حساب المظلومين والمضطهدين، فضلا عن سعيهم المتواصل من اجل الحفاظ على مراكزهم، فقد سعى الفضل بن الربيع للحفاظ على مركزه بمختلف الوسائل، لذلك فقد تآمر

على البرامكة حيث اخبر الخليفة هارون الرشيد بان جعفر بن يحيى البرمكي، أطلق يحيى بن عبد الله بن حسن العلوي من السجن، بدون اخذ موافقته، فتَغيظَ عليه، وحَلفَ ليقتلنَّه، حتى أوقع بالبرامكة(٥٩)، كما عمل ـ أي فضل الحَاجِب ـ جاهدا على الحيلولة دون اعتلاء الخليفة المأمون الحُكمْ، لذلك فقد ارتحل بالجيش الذي خرج مع الخليفة هارون الرشيد من خراسان إلى بغداد بعد وفاته(٦٠) كما خَوّف الخليفة محمد الأمين من أخيه المأمون، وظَّل يُحسّن له خلعه والدعاء لابنه وبولاية العهد للمأمون من بعده، إلى أن خلعه، فكان ذلك سببا للصراع بين الأخوين والفتنة التي جَرَّت بأهوالِها على البلاد(٦١).

إن تدخُل الحُجَابْ في شؤون الخلفاء، والوقوف إلى جانب هذا الخليفة والتآمر على مُنَافِسه كما ذكرنا أعلاه، هذا يعني إن مصيرهم أصبح مرتبطا بالخليفة ارتباطا وثيقا فعندما يُقتَل الخليفة، كان في كثير من الأحيان، يُقتَل حَاجِبه معه، فقد أسْرعَ الربيع الحَاجِب إلى إبلاغْ الخليفة أبو جعفر المنصور، بخروج محمد بن عبد الله بن الحسن عليه عام (١٤٥هـ/٧٦٢م) وذلك لأنه ـ أي الربيع الحَاجِب ـ رأى إن هذا الأمر يُشَكِلْ تهديدا لوجوده المُرتبط أصلا بوجود الخليفة(٦٢)، كما يَذكُر ابن كثير انه في عام (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) حدث انقلاب على الخليفة المقتدر بالله، استمر يومان، هرب فيه الحَجَبة من دار الخلافة(٦٣)، كما دفع نازوك الحَاجِب في عهد الخليفة القاهر بالله، رأسه ثمنا لقبوله الحِجابَة، إذ حُمِلَ رأسه ونودي به في الأسواق " هذا رأس من عصى مولاه"(٦٤).

وقَفَ بعض الحُجَابْ بقوة ضِد الحركات والثورات، التي حدثتْ في البلاد، والتي هددت وجود الخلفاء العباسيين، حيث ساهموا في قيادة الجيوش، فقد قاتل حَاجِب الخليفة المقتدر بالله، سعيد الحَاجِب في عام (٢٥٧هـ/٨٧٠م) صاحب الزنج، واستنقذ من يده خُلقا من النساء والأطفال والأموال (٦٥) كما أرسل محمد بن ياقوت حاجب الخليفة الراضي في عام (٣٢٢هـ/٩٣٣م) رسولا إلى أبي طاهر القرمطي يدعوه إلى طاعة الخليفة(٦٦).

إن تِلك السُلطة التي تَمتعَ بها الحُجابْ عند الخلفاء، لا بُدَ أن تُثِير حَسدْ وتَنافُسْ الوزراء وقادة الجيش، والدواوين، الذين أنِفوُا من أن يمتثِلوا لأمر حَاجِب، أو يخافوا سُلطانه، لذلك شهد العصر العباسي الثاني لاسيما بعد ضُعفْ

الخلفاء، صراعا قويا قد تتَحدْ فيه بعض هذه الأطراف أحيانا، وتتنافر أحيانا أخرى، لكنها في الواقع أضَرتْ البلد، وجعلته ساحة للصراع في الوقت الذي أصبح مسرحا لعناصر أجنبية سعت إلى خراب البلد من أتراك وبويهيين وسلاجقة فمثلا سعى الوزير أبو علي بن مقلة إلى تدبير مؤامرة انتهت بالقبض على محمد بن ياقوت الحَاجِب وقتله(٦٧).

على انه لا بد من أن نذكُرَ، أن الحُجَابْ لم يكونوا دائما بحجِم الثِقة التي منحها إياهم الخلفاء لاسيما في العصر العباسي الثاني، فقد تآمر بعض الحُجَاب على الخلفاء في خضم الصراع على السلطة، وتدخل العناصر الأجنبية في البلاد فقد تآمر بعض حُجَاب الخليفة المتوكل عليه وكان على رأس المؤامرة وصيف وبغا الشرابي وهذا ما دفعه إلى مصادرة أموالهم(٦٨) كما عزم علي بن بليق الحَاجِب وأبو علي بن مقلة الوزير وجماعة من القادة في سنة (٣٢١هـ/ ٩٣٣م) على خلع الخليفة القاهر بالله وتولية أبو احمد بن المكتفي(٦٩).

موقف المجتمع مِنْ حُجَاب السلطة:

توجسَ كبار موظفي الدولة ابتداء من الوزير وقادة الجيش وحتى عامة الشعب، خيفةً من سلطة الحُجَاب، وفي الواقع أن كل هؤلاء كانوا مُحقِّين في خوفِهم هذا، فتذكر الروايات انه على الرغم من المكانة الكبيرة التي تمتع بها البرامكة في عهد الخليفة هارون الرشيد، وتَمُكِّنهم من أمور الدولة كلها، إلا أنهم أدركوا حقا مكانة الحاجِبْ وأثره على الخليفة، لذلك فقد أصر الوزير يحيى بن خالد البرمكي على أن يقضي عشر قصَصْ كان قد حَملُهُنَّ إليه الفضل بن الربيع الحَاجِب(٧٠)، كما وجه احد القادة العسكريين طلبا إلى نصر الحاجب يطلب منه التوسط لإصلاح أمره مع الخليفة المقتدر، فلم يرد الخليفة طلب حاجبه(٧١).

ولا ريب أن اغلب الواقفين على باب الخليفة يُدركِون أهمية هذا الشخص الذي يتولى عملية دخول الناس إلى الخليفة ويتولى فيما بعد تنفيذ ما

يأمر به الخليفة، فالمحظوظ عندهم من يوافق الخليفة على مقابلته وفي ذلك يقول الخليفة أبو جعفر المنصور لأعرابي "لا يمكنك الدخول علينا كلما أردت"(٧٢).

نال بعض الحُجَاب إعجاب بعض الوافدين على الخليفة، لذلك فقد مَدحُوهم أمام الخليفة، فعندما قَدِم محمد بن ذؤيب النهشلي التميمي العماني الراجز إلى بغداد مَدحَ الخليفة هارون الرشيد وحَاجِبه الفضل بن الربيع(٧٣).

أنتقد علماء الأمة ومثقفيها كثرة حُجَاب السلطة ومنهم أبو العتاهية(٧٤) الذي خاطب الخليفة هارون الرشيد قائلا: ـ

لا تَأمنَ الموتَ في طَرفِ ولا نَفسِ وَلَو تَمتعَّت بالحُجَابِ والحَّرسِ(٧٥)

وكان لتعامل البعض منهم نصيب من تلك الانتقادات فعندما قدم العباس بن الحسن بن عبيد الله بن علي بن أبي طالب ـ وكان عالما شاعرا فصيحا ومن صحابة الخليفة المأمون ـ إلى الخليفة المأمون، نظر له الحاجب ثم اطرق، دون أن يأذن له في الدخول أو الاعتذار، فغضب من تصرفه هذا بقوله " لو أذن لنا لدخلنا ولو اعتذر إلينا لقبلنا ولو صرفنا لانصرفنا فأما اللفتة بعد النظرة، لا اعرفها، فأنشد يقول:

وما عن رضا كان الحمار مطيتي ولكن من يمشي سيرضى بما ركب(٧٦)

كما تهكم القاضي احمد بن بديل بن قريش اليامي الكوفي (ت ٢٥٨هـ/٨٧١م) عندما طلبه الخليفة المعتز لزيارته، ومر بحُجَابْ ثلاث، طلبوا منه خلع نعليه، فما كان منه إلا أن رفض طلبهم قائلا "... أبالواد المقدس أنا فأخلع نعلي ؟..."(٧٧).

وكان لتدخل بعض الحُجاب في شؤون الناس ومعتقداتهم أثرها في إثارة العامة عليهم وبالتالي حدوث بعض الاضطرابات في الوقت الذي كان فيه البلد يشكو من الاضطرابات والفوضى، ففي عام (٣٢١هـ/ ٩٣٣م) أشاعت العامة أن الحَاجِب علي بن بليق يريد أن يلعن معاوية ويزيد ابنه، فانتفضت على اثر ذلك، فما كان من الحاجب إلا أن أمر بالقبض على البربهاري أبي محمد الواعظ رئيس الحنابلة الذي هرب وجماعة من اصحابه(٧٨).

كما وقف الحُجاب بجانب القضاة والفقهاء لمحاربة المبتدعين ودفعهم إلى الرجوع عن الخطأ والتوبة أو القتل، وفي ذلك يروي ابن الأثير خبر إحضار أبو بكر بن مُقسم إلى بغداد ومناظرته في أمر عُّد بدعة حيث اعتمد قراءة جديدة في القرآن لم تكن تعرف، فاعترف بالخطأ وتابَ وأحرقت كتبه[٧٩].

أحاديث وفضائل الخلفاء من وجهة نظر حُجَابهم:

يُمكن القول من كل ما سبق ذكره، أن الحُجَاب كانوا حافظي أسرار الخلفاء بحُكم علاقتهم بالخلفاء، ومعرِفتَهم بمن يدخُل ويخرُج مِنْ قصر الخليفة، لذلك فقد روى بعض الحُجَاب أحاديث وأخبار عن ما سمعوه أو رأوه من الخليفة، وهي أخبار قليلة جدا بالمقارنة مع الأحداث الكبيرة التي حدثت آنذاك، لكن يبدو إن حِرصِهم الشديد على كتمان أسرار الخلفاء هو الذي دفعهم إلى عدم الرواية عنهم إلا بالمقدار الذي يرتأونه هم. فمنهم من روى أحاديث للرسول (ﷺ) مما سمعه عن طريق الخلفاء، فقد روى الربيع الحَاجِب حديثا في سنده الخليفة أبو جعفر المنصور عن آبائه [٨٠]، قيل انه مُنكر [٨١].

كما روى أيضا عن أبي جعفر المنصور كلاما في الفخر والغرور والاعتزاز بالنفس وهو يقول " الخلفاء أربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، والملوك أربعة معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك وأنا " [٨٢].

وكذلك وردت روايات مُبالغ فيها بعض الشيء، رواها الحُجَاب على سبيل التملُق في مدح جمال الخلفاء وحسُّن زينتهم، فقال احد الحُجَاب عن الخليفة المهدي " ما ادري هو أحسن... ام القمر... ام ثيابه"[٨٣]، أو الإعجاب بشجاعتهم فيذكر جعيف السمرقندي الحَاجِب شجاعة الخليفة المعتضد في مواجهة الأسد قائلا " استل سيفه... وتقدم إلى الأسد فوثب الأسد عليه فضربه بالسيف فأطار يده فاشتغل الأسد بيده فضربه ثانية على هامته ففلقها... فخر الأسد صريعا"[٨٤].

الخاتمة:

وخُلاصة القول، أن سلطة ونفوذ الحُجَاب تعاظمت لاسيما مع ضعف الخلفاء، إذ وجدنا أن بعض هؤلاء الحُجَاب كانت لهم الكلمة النافذة في كثير من

القضايا في داخل المؤسسة الإدارية فضلا عن السياسية والعسكرية، لذلك فقد توجسَ كبار موظفي الدولة ابتداء من الوزير وقادة الجيش وحتى عامة الشعب، خيفةً منهم، وفي الواقع أن كل هؤلاء كانوا مُحقِّين في خوفِهم هذا، فالحَاجِب يكاد يكون اقرب الناس إلى الخليفة فهو يرافقه في حله وترحاله، يعرف أسرار شخصيته، أين يكمُن ضعفه، وقوته، وقد يصح القول هنا أن حياة الخليفة بين أيدي هؤلاء الحُجَاب.

فقد طغى بعضهم على شخصية اغلب الخلفاء حتى وصل الأمر إلى قتل الخليفة في حين كان البعض الآخر منهم يتملق للخليفة ويتودد إليه وهذا الأمر لاحظناه عند خلفاء بني العباس الأقوياء كأبي جعفر المنصور والمأمون.

لا ريب في أن وجود حُجَاب ينظمون الدخول والخروج للخليفة أمر جيد لكيلا تعم الفوضى عند استقبال الخليفة للوافدين، لكن أن تكون لأمِزجة هؤلاء دورا في تحديد من يستطيع مقابلة الخليفة، فهو أمر مرفوض للغاية يجعل الناس يشعرون بالجور، والظلم، واستحالة تحقيق العدالة.

ذكرت النصوص أن اغلب الوافدين كانوا يتوددون إلى الحُجَاب ليتمكنوا من مقابلة الخلفاء أو قد يساعدوهم ـ أي الحُجَاب ـ في حل مشاكلهم، في حين وقفوا بشدة بوجه البعض للآخر من الوافدين واعني بهم العامة من الناس ممن أجبرتهم الظروف على الوقوف بباب الخلفاء.

لا شك في أن الثراء والجاه الذي عاش فيه اغلب هؤلاء الحُجَاب، قد جعلهم غير مُدركين لمشاكل وهموم الناس وبالتالي عاشوا في الضفة الأخرى التي عاش فيها الخلفاء وجواريهم وحاشيتهم.

جدول بأسماء حُجّاب الخلفاء

ت	الخلفاء العباسيون	حُجّابُهم
١	أبو العباس السفاح١٣٢ـ ١٣٦هـ	أبو غسان مولاه
٢	أبو جعفر المنصور ١٣٦ ـ١٥٨هـ	عيسى بن روضة ثم الربيع بن يونس مولاه
٣	محمد المهدي١٥٨ ـ١٦٩هـ	الربيع بن يونس مولاه
٤	موسى الهادي١٦٩ـ١٧٩هـ	الربيع بن يونس
٥	هارون الرشيد١٧٠ ـ ١٩٣هـ	الفضل بن الربيع
٦	محمد الامين١٩٣ـ١٩٨هـ	الفضل بن الربيع ثم ابنه العباس بن الفضل
٧	عبد الله المأمون١٩٨ـ٢١٨هـ	احمد بن هشام وعلي بن صالح صاحب المصلى
٨	المعتصم بالله ٢١٨ـ٢٢٧هـ	جماعة من الأتراك منهم وصيف وسيما الدمشقي وسيما الشرابي ومحمد بن حماد
٩	الواثق بالله ٢٢٧ـ٢٣٢هـ	جماعة من الأتراك
١٠	المتوكل على الله٢٣٢ـ٢٤٧هـ	حجاب كبار منهم وصيف وبغا وايتاخ
١١	المنتصر بالله ٢٤٧ـ٢٤٨هـ	حجبة كثيرون
١٢	المستعين بالله٢٤٨ـ٢٥٢هـ	وصيف وبغا
١٣	المعتز بالله ٢٥٢ـ٢٥٥هـ	له حجاب لم تذكر الأخبار أسماؤهم
١٤	المهتدي بالله ٢٥٥ ـ٢٥٦هـ	له حجاب لم تذكر الأخبار أسماؤهم
١٥	المعتمد على الله ٢٥٦ ـ٢٧٩هـ	سعيد الحاجب
١٦	المعتضد بالله ٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ	صالح الحاجب وجعيف السمرقندي
١٧	المكتفي بالله ٢٨٩ـ ٢٩٥هـ	له حجاب لم تذكر الأخبار اسماؤهم
١٨	المقتدر بالله ٢٩٥ـ ٣٢٠هـ	كان كثير التحجب منهم مظفر بن ياقوت ونصر القشوري ثم نازوك
١٩	القاهر بالله ٣٢٠ ـ ٣٢٢هـ	نازوك وعلي بن بليق وسلامة الطولوني
٢٠	الراضي بالله ٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ	محمد بن ياقوت وسلامة الحاجب

اعتمدت في ترتيب الجدول على اليعقوبي في تاريخه وابن كثير في كتابه البداية والنهاية

المصادر والهوامش

(١) الخطيب البغدادي، احمد بن علي، تاريخ بغداد، ط٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤) ج٢ / ص١٤١، ٥٥٩ الخليفة الراضي.

(٢) الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح (دار الرسالة، الكويت، د. ت) ص١٢٢

(٣) مجموعة من الباحثين، المعجم الوجيز، (مجمع اللغة العربية، القاهرة، د. ت) ص١٤٣

(٤) سورة آل عمران، آية ٤٦، سورة الأحزاب، آية ٥٣، سورة صَ، آية ٣٢، سورة فصلت، آية ٥ ؛ ينظر للمزيد محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط٣ (مطبعة ظهور، قم، ١٣٨٤هـ) ص٢٤٦

(٥) ابن حجر العسقلاني، احمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، (دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ) ج٢ / ص٤٥٣.

(٦) عبد الرحمن، المقدمة (دار الهلال، بيروت، ١٩٨٨) ص١٨٨

(٧) م. ن

(٨) م. ن

(٩) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، رسائله السياسية، قدم لها وشرحها:الدكتور علي أبو ملحم، ط١ (دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧) ص ٥٦٦ كتاب الحجاب

(١٠)محمد الخضري بك، الدولة الأموية ط١ (مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٣) ص٤٢٨

(١١)الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ط١ (دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٥) ج٣ / ص٤١٤

(١٢)الجاحظ، رسائله السياسية، ص٥٦٦ كتاب الحجاب

(١٣)احمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، تاريخ، ط١ (المكتبة الحيدرية، قم، ١٤٢٥هـ) ج٢، ص٢٣٢ ؛ ينظر ابن خلدون، المقدمة، ص١٨٨

(١٤)محمد الخضري بك، الدولة العباسية، ط١ (مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٣) ص٧٣

(١٥)الطبري، تاريخ، ج٣ / ص٤١٤

(١٦)المقدمة، ص١٨٨

(١٧)ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، ط١ (دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢) ص ٦٨

(١٨)محمد الخضري بك، الدولة الأموية، ص٤٢٨

(١٩)م. ن، ص ٤٢٧

(٢٠)ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ص ٦٩

(٢١)اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢٣٥ ؛ الجاحظ، رسائله السياسية، ص٥٦٧

(٢٢)الجاحظ، رسائله السياسية، ص٥٧١ كتاب الحجاب

(٢٣)المسعودي، علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، (دار القلم، بيروت، ١٩٨٩) مج ٣ / ص٢٨٠

(٢٤)ابن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية، ط٢ (دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥) مج٦، ج١١ / ص٤

(٢٥)م. ن، مج٥، ج١٠ / ص١٥٥

(٢٦)م. ن، مج٥، ج١٠ / ص١٧١
(٢٧) اليعقوبي، تاريخ، ٢ / ص٤٤٢
(٢٨)الخطيب البغدادي،، تاريخ، ج١٢ / ص٣٢١، ٦٥٨٣ العباس بن الفضل
(٢٩)ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ط٧ (دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥) ج٧ /٤٣
(٣٠)المسعودي، مروج الذهب، ج٣ /ص٢٨٣
(٣١)محمد الخضري بك، الدولة العباسية، (مؤسسة المختار، القاهرة، ٢٠٠٣) ص٤٦٦
(٣٢)ابن كثير، البداية، مج٥، ج١٠ / ص١٧٧
(٣٣)المسعودي، مروج الذهب، ج٣ / ص٢٨٢
(٣٤)ابن كثير، البداية، مج٦، ج١١ / ص١٨٢
(٣٥)م. ن، مج٥، ج١٠ / ص٢٩٤
(٣٦)ينظر اليعقوبي، تاريخ، ج٢ / ص٤٧٠
(٣٧)الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٠ / ص٦٠، ٥١٧٩ قطن بن معاوية ؛ عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول، ط٣ (مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤) ص٣١٧
(٣٨) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٠ / ص٦٠، ٥١٧٩ قطن بن معاوية
(٣٩)ابن كثير، البداية، مج٥، ج١٠ / ص١٣٢
(٤٠)الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٨ / ص٤١٣، ٤٥٢١
(٤١) م. ن، ج١٠، ص٤١٠، ٥٥٧٦
(٤٢) م. ن، ج١٢، / ص١٦٦، ٦٦٥٢ عمرو بن عبيد
(٤٣)طاهر مظفر العميد، تخطيط المدن العربية الإسلامية (مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٦) ص٣٨٤
(٤٤)الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٠ / ص٤١٠، ٥٥٧٦
(٤٥)ابن خلدون، المقدمة، ص١٨٨
(٤٦)م. ن، ص١٨٨
(٤٧)ابن كثير، البداية، مج٦، ج١١، ص١٣٦
(٤٨) المسعودي، مروج، مج٣ / ص٢٨٣
(٤٩) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٢ / ص٢٧٦، ٦٧٢١
(٥٠) م. ن، ج١٤ / ص١١، ٧٣٤٧ هارون الرشيد
(٥١) ابن الأثير، الكامل، ج٨ / ص١٤٦
(٥٢) صالح احمد العلي، بغداد مدينة السلام (مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٥) مج٢، ص٤٣
(٥٣) المسعودي، مروج، مج٣ / ص٣٢٤
(٥٤) م. ن، مج٣ / ص٢٨٢
(٥٥) م. ن، مج٣ / ص٢٦٥
(٥٦) ابن كثير، البداية، مج٥، ج١٠ / ص١٦٣

(٥٧) م. ن، مج٥، ج١٠ / ص٢٦٦
(٥٨) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٨ / ص٤١٣، ٤٥٢١
(٥٩) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان (دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت) مج٤، ج٧ / ص٧٢
(٦٠) ابن كثير، البداية، مج٥، ج١٠ / ص١٩٩
(٦١) م. ن، مج٥، ج١٠ / ص٢٣٥
(٦٢) م. ن، مج٥، ج١٠ / ص ص٢٣٦، ٢٣٧
(٦٣) المسعودي، مروج، مج٣، ص٢٨٠
(٦٤) ابن كثير، البداية، مج٦، ج١١، ص١٧١
(٦٥) م. ن، مج٦، ج١١، ص١٧١
(٦٦) م. ن، مج٦، ج١١ / ص٣١
(٦٧) ابن الاثير، الكامل، ج٨ / ص٣٠٥
(٦٨) فاروق عمر فوزي، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ط٢ (مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٧) ص٤٢
(٦٩) ابن الاثير، الكامل، ج ٨ / ص٢٦٠
(٧٠) ابن كثير، البداية، مج٥، ج١٠ / ص٢٧٩
(٧١) م. ن، مج٦، ج١١ / ص١٦١
(٧٢) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٠ / ص٥٨، ص٥١٧٩ المنصور
(٧٣) م. ن، ج٢ / ص٣٣٦، ٨٣٨
(٧٤) اسماعيل بن القاسم أبو اسحاق العنزي الشاعر (ت ٢١٣هـ) أصله من عين التمر ومنشؤه الكوفة ثم سكن الكوفة، اتهم بالزندقة ينظر الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٦ / ص٢٤٩، ٣٢٨٨.
(٧٥) ابن كثير، البداية، مج٥، ج١٠ / ص٢٢٩
(٧٦) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج١٢ / ص١٢٦، ٦٥٨١
(٧٧) م. ن، ج٤ /ص٢٦٨، ١٩٧٢
(٧٨) ابن كثير، البداية، مج٦، ج١١ / ص١٨٥
(٧٩) م. ن، مج٥، ج١٠ / ص١٧٤
(٨٠) الخطيب البغدادي، تاريخ، ج٨ / ص٤١٣، ٤٥٢١ الربيع بن يونس
(٨١) م. ن، ج٨ / ص٤١٣، ٤٥٢١ الربيع بن يونس
(٨٢) السيوطي، تاريخ، ص٢١٠
(٨٣) ابن كثير، البداية، مج٥، ج١٠ / ص١٥٨
(٨٤) م. ن، مج٦، ج١١ / ص٩٥